بين الشك والإيمان

الشاعر الانجليزى بيرون [١]

Byron

(١٧٨٨ — ١٨٢٤)

للأستاذ خليل هنداوى

روح هائمة ونفس معذبة طغى عليها الشك فى جميع أدوارها ، فارتمشت واضطربت وجدّفت ، وما تجديفها إلا صدى تلك الحرقة الملتهبة فى قلب الشاعر الذى يريد أن يزيح ذلك الغطاء عن الحقيقة المحتجبة .

قضى الشاعر طفولته الأولى حراً لا تقرعه عصا الأبوة ، لأنه نشأ تحت رعاية أم كثيرة الاشفاق عليه ، دخل المدرسة وشيطان الشعر والفن أخذ يوسوس له ويقويه وهو لما يلبس أردية الشباب ، فأنفق أيامه يزجى الفراغ متسلياً بالنظم لاهياً بالطرب . وفى هذا العمر الزاهى تسرّب إليه الشك ودعاه زهوه إلى الجحود ، فجحد باليوم الآخر وحطم قيود التقاليد . ولكن سرعان ما أعياه التفكر فى حقائق الوجود وكم أعيت من قبله ؟ فتعب من نفسه وهو الرقيق النفس ، وتعب من الناس وهو ذو الروح الشاعر .

هجر وطنه وفى خلال هذه الهجرة بدأ ينظم مقطوعته الخالدة « طواف شيلد هارولد »

ومن هو هارولد ؟ « هارولد عرفه الناس شر من جاور الناس ، يعيش مستقلاً عنهم مزهواً بيأسه ، يعرف كيف يتلمس الحياة فى زوايا نفسه . كذلك الكلدانى الذى أرسل عينيه فى النجوم ، وما زال يحدق فيها حتى أسكن نجومها المضيئة كائنات مثلها مضيئة ، فاذا استطاع أن يرقى بنفسه فى هذا الأوج كان سعيداً ، ولكن الطين الذى جُبل منه يثقل عليه ، وتراه — وهو الراغب فى النور الساطع — يتمنى أن يُهدم السد الذى يحول بيننا وبين السماء ، تلك السماء التى تتفتح لنا فى أعاليها عوالم مضيئة . وانه لهائم فى منازل بنى الانسان يغلب عليه القلق ويزعجه التعب ؛ مظلم النفس كثير الهم كاسف اللون كالصقر المهيض الجناح لا يجد له وطناً إلا الفضاء الفسيح ، فيأخذه هيمان يستلب عقله ، فهو يريد انقاذه منه ، فيهيج ويدأب كالطائر الذى يقرع قضبان قفصه فيصبغ كساءه بدمائه ، ونفسه السجينة المضطرمة أخذت ترشف هذه الدماء ، دماء قلبه . . . »

فأى فتى يتوارى وراء هذه الأبيات ؟ هل هو غير الشاعر ؟ وكل من قدر له أن يتذوق ماوراءها من يأس ومرارة يحس أن الشاعر لا يستطيع أن يخرج عن نفسه ، لأنه يستمد كل عوامل نظمه من نفسه ، فلندعه يخلق الأشخاص ويولد الأبطال . فلن ترى وراء هؤلاء كلهم ناطقاً غير الشاعر ، ولا قانطاً غير الشاعر ، فهو ذلك الفتى النبيل الذى غامر فى ملذاته حتى عاده السأم ، والسأم داء يقتل فى المسرات كما يقتل فى الأشجان ، فتراه يهجر عالم الانسان كالمسحور « هائماً وراء أحلام مظللة ، يخنقه السرور ويهفو إلى الشقاء والحزن لأنه يجد فيهما مروّحاً عن نفسه ، متخذاً وطنه ، حاملاً معه إلى المواطن التى وطئها — وهى مواطن الانس ومرابع النزهة — فكرته التى تسعى وراءه كأنها شيطان لا حق به [١] » .

عرّج على الاندلس ونزل فى (أثينا) مدينة الفلسفة ، وهنالك استفزته هذه المشاهد التى تحمل طياتها التراث الفكرى الذى استله الحاضر من الغابر . وهذه المشاهد هى التى أوحت إلى (رينان) [٢] صلاته الخالدة ، وفجرت فى قلب (شاتوبريان) [٣] ينابيع العاطفة والتصور . هنالك وقف (بيرون) ازاء هذه الآلهة المتناثرة على الحضيض ، فسخر من الآلهة الموجود والآلهة المفقود .

يا ابن يوم واحد ! أنهض وادنُ منى . . . .

أنظر إلى هذا المكان . . . هو وطن شعب ، ومأوى آلهة تبعثرت هياكلهم .

الآلهة نفسها تتلاشى ، ولكل شريعة أجلها . . . !

(١) نشرنا فى العدد ٥٩ الجزء الثانى من هذه المقالة قبل أن ننشر جزءها الأول لأنه فقد فى البريد ، وقد أرسل إلينا الأستاذ الكاتب صورته اليوم فعدنا لنشره . (الرسالة)

(١) Taine : تاريخ الأدب الانجليزى

(٢) اشارة إلى صلاة هذا الفيلسوف على الأكروبول . وهى المقطوعة الأولى والأخيرة التى ظهر بها (رينان) شاعراً عميقاً تجرد من اثقال الفكر واتبع صوت العاطفة .

(٣) هو الكاتب الوجدانى الذى مهد الطريق بكتاباته للمدرسة الرومانتيقية .

بالأمس ساد (جوبيتر) واليوم يسود (محمد) [1] والعصور الآتية ستتخذ لها من مذاهب القوم مذهباً حتى يجيء عصر يجد فيه الانسان أن مايضرمه من بخور ويهدره من أضاحيّ يذهب عبثاً !

أيها الولد الحقير ! ياقذفة الشك والموت ! يامن يتوكأ رجاؤه على أقدام من قصب . . . ! »

وقف الشاعر إزاء (البريتون) وتحت قبته المنقوبة فرحّب بالعدم وجعل عصره خير عصر لنا وغده خير غدنا . فقال : « هاهنا قبة العقل ، هاهنا مأوى النفس . كل ما كتبه القديسون والسفسطائيون والعقلاء ، أقادر على أن يمر هذا الجوب المنعزل ؟ ألا إن الراحة تنتظرنا على شواطىء (الاشيرون) . هنالك لايكره الذى شبع من الحياة على ان يستوى على هذه المأدبة المملة ، ولكن السكون بعد ذلك الرقد الذى يحمل للجالس عليه السبات الأبدى »

ولكن بيرون لم يكن بذلك الجاحد الذى استراح ضميره وأراح ، فالحيرة لاتزال تغشاه ، والتردد لايزال يطغى عليه كأنما اتسع قلبه لنوازع يأكل بعضها بعضاً ، ويدمر بعضها بعضاً ، شأن الذى يركبه الشك ، ويتوارى عنه اليقين . وإنما يتميز بيرون من غيره من شعراء الشك بثورة دامية فى نفسه يُقدّم وقودها من قلبه ليحرق بها قلبه ، وهو قلب قتله الظمأ الى اللانهاية ، هذا الظمأ الذى عجزت عن إطفائه سواقى الأرض .

قال (لامينى) لزملائه يوماً : أتعرفون ماذا جعل الانسان أشقى الكائنات ؟ هذا لأن له قدماً وضعها فى العالم المتناهى ، وأخرى فى العالم اللا متناهى ، وهذه هى حالة بيرون .

ولكن وجه الغرابة فى ثورة بيرون أنها اضطرمت فى صدره ولما يبلغ الثامنة عشرة ، وحق لمثل هذه الثورات أن تثور على مهل لأنها تأخذ غذاءها من العاطفة لامن العقل . وقد طغى اليأس عليه وهو مازال فى ميعة صباه ، ولكن قلبه يخفق ويخفق معلناً « أن الشباب ولّى ، وأن الحياة بليت ، وأن الرجاء نفسه قد أسدل على وجهه حجاباً . »

جاز بيرون بأحد القبور فقال : « ياأحلام طفولتى ! كم حسرة تتصاعد منى عليك . أنا لا أستطيع أن أنساك ، لأننى أجد ماحولى ظلمات متراكماً بعضها على بعض ، لاشىء أعز على قلبى منك ياشعاع الماضى . »

وكتب وهو فى ڤينوس « إننى سأنفق شبابى حتى ينفد ، وبعدئذ أقول : عمى مساء أيتها الحياة ، فقد عشت وكنت مسروراً . »

ولكن ياله من سرور ! وهو القائل « أتيقظ فى كل صباح وبى يأس وسآمة من كل شىء ، حتى من الذى يبطن سهدى بالسرور . »

ممّ يشكو الشاعر ؟ وما هى الأسباب التى أورثت قلبه هذه السآمة وهو ممن لم تحوزهم أسباب الهناء ، ولا ممن نزلت بهم حوادث الدهر ، وهذه المواطن التى جابها فى سياحاته تشفى البائسين وتداوى أصحاب الهموم ، ميدان الهوى أمامه رحب الفناء ، ومجال الحرية والمجد والبراعة واسع الفسحة ، فأية سعادة يطلبها ، ويلح فى تناولها ، ويشقى نفسه فى تتبعها ، وأين يجب أن يتحرى عنها إذا لم يجدها هنالك ؟

قد عّلل بعض النُقاد أسباب هذه المظاهر بافعام نفسه بالسرور الذى يخلق السأم ، ولاعجب إذا قتل السرور الكثير صاحبه كما يقتل الحزن صاحبه ، ولنسمع الشاعر نفسه يعلل هذه السآمة قائلاً :

« وا أسفاه ! عواطفنا الفتية تذوب ضائعة ، حيث لاتنتج إلا قفراً فارغاً ، ولاينبت منها إلا أشواك مؤذية . . . ونبات بقدر ما يروق للعين منظره ، يؤذى القلب ويؤلمه . وأشجار يقطر منها السم القاتل ، هذه هى الأشجار التى تولد تحت أقدام الأهواء .

أيها الحب ! لست أنت من سكان هذا الوجود ! أيها الساروفيم الذى لايرى ، نحن نؤمن بك . أنت شريعة أصحاب القلوب المنكسرة فيها ، همّ الشهداء ، ولكن العين لاتراك ، ولن تراك بحقيقتك .

الحب هو هذيان ، وهو جنون الشباب ، لكن علاجه أمر من عذابه ، وعند ما نرى تلك الجواذب تتلاشى الواحدة بعد الثانية من أصنامنا الغرامية ، وعند ما نرى تلك الروعة التى كانت تتمثلها مخيلتنا فى حالة التسامى قد زالت ، فسرعان مايذهب هذا

(١) اشارة إلى الاتراك الذين كانوا يسيطرون على اليونان

الانجذاب عنا ، وبعد أن زرعنا الريح لم نحصد إلا العاصفة .

يأتينا الذبول ونحن في فجر العمر . . . نشقى ونسأم ونسعى الى الغاية ، والغاية تمعن في الفرار . . . وظمؤنا لاينقع غلته شيء . . . وفي اللحظة الأخيرة ، ونحن على حافة القبر يعودنا خيال جميل هو خيال السعادة التي تحرينا عنها في مطالع الحياة ، ولكنه زار متخلفاً ، وجاد بالوصل حين لاينفع الوصل ، فنذوق الشقاء مرتين . . . .

الحب والطمع والبخل ، كل هؤلاء سيء ، ماهي إلا شهب واحدة تجيء باسم واحد . والموت وحده هو الدخان القاتم الذي يطفيء نارها . »

ما أدنى هذه العواطف من القلب ، لأنها ماخرجت من قلب إلا لتدخل في قلب . . . ولكن يبرون الظلم قلبه ماوجد على الأرض إلا الظلام ؛ وما أبصر إلاخيال السعادة مولياً أمامه ، فقيد الحقيقة — التي هي حقيقة الدهر — بهذا الخيال . وهو الشاعر قبل أن يكون فيلسوفاً . ولكن هل كل جمال مآله الزوال؟ أكل حب يستقي من نبعة واحدة ، فهنالك أنواع كثيرة لجمال يزول وجمال يبقى ، وحب يتلاشى وحب يحيا ، فبأي نوع قيد الشاعر سعادته ؟

هاهو حائر كيف يقضي أعوامه هنا ؟ وكيف يستقبل ذلك العالم الهامد ؟ يأتيه الضجر فيدع أشخاصاً وأبطالاً تغلي فيهم نزعة الضجر لأنهم يستمدون عواطفهم من عاطفته .

فهذا (ما نفرود) يعلك علبة السأم ، سأله الجني : ماذا تتمنى ؟ فأجابه : النسيان ، نسيان نفسي .

وهذا هارولد كان يدعى : « الفتى السائم من الوجود » وهذا (جيور) كان لايجد أقفر من صحراء القلب الفارغ

وأخيراً آل به هذا الشك إلى جحود كل شيء ، تخلا قلبه من الحب وفرغ من الأمل . واستحالت كل هذه الصفات النبيلة إلى كره للبشر ، وهل في استطاعة من كرههم وأوسعهم ذماً أن يبدلوا ظلمة قلبه نوراً إذا لم يكن النور ابن قلبه ؟

لنصغ إليه وهو يحدثنا عن الناس « هل أعود إليهم كرة ثانية أتحرى عما يرجوه قلب هادىء في هذه المواطن التي يتلب فيها إنهاك أصحابها في المنكرات ، وحيث الضحكات ترتفع عبثاً لتخفي حقيقة القلب . هذه الابتسامة هي تؤلف أخدوداً لدمعة طافرة ستنسكب »

لم يستطع أن يحمل نفسه فطاربها في الآفاق يسليها بالوحدة فطابت له حياة منعزلة تقصيه عن الناس في مواطن آهلة بالجبال التي يدعوها أصدقاءه ، منتحياً عن قوانين وحكومات أقسم ليكرهنها حتى يقضي نحبه .

وكأن هذا الألم قد أكسبه قوة ومناعة « أما الجمل فانه يخفي ظهره تحت الحمل ثم يمشي ساكتاً ، والذئب يموت ساكتاً ، ونحن الأولى تسمو جبلتنا على جبلتهم ، لنتعلم أن نتألم مثلهم »

ويقول بلسان أحد أبطال روايته « إنني شبيه بهذه الريح المشتعلة التي لا تسكن إلا الصحراء ، ولا تهب لواقحها إلا على الرمال . . الأسد وحده أتخذه لنفسي مثلاً » وبمثل هذا الكبرياء حلى بيرون أبطال رواياته ، وجعلهم ناقمين ثائرين غير راضين عن الوجود ، فأتعب نفسه كثيراً وأتعبهم كثيراً . فاذا كان القعود عن الشيء يعد عجزاً فان التحليق فوق حدود الامكان ماهو إلا ضرب من ضروب العجز ، وان رفض الانسان الوجود رفضاً باتاً بحجة نقصه ، وان يهرب منه ومن اصحابه بداعي هذه الحجة ها من نقائص النفس التي تستر عجزها وترددها وراء هذا التهور الفارغ .

هذا هو الوجود ؛ إن وجدت فيه الجميل فاملكه ، وإن وجدت القبيح فمنه وأصلحه ، وإياك ان تعف عن الأول بسبب الثاني ، لأن قوانين الحياة قاسية تسخق من يحاول ان يسحقها . هكذا أرادت أن تكون ، وهكذا تريد أن تعيش

وفي النهاية لاتجدي هذه الكبرياء شاعرنا شيئاً ، فهو تعس يود أن يعترف بتعسه لأنه لايستطيع أن يعيش كالجمل ساكتاً او يموت كالذئب صامتاً . فيقول :

« ما أشد تعسي ! أيامي أمست تجري على وتيرة واحدة ، وليالي أقضيها بالسهاد ، لا أخالط المجتمع البشري الاقليلاً ، اذا جاءني احد منه لذت بالفرار . . إنها لحال مؤلمة لاينقذني منها إلا الجنون »

كل هذه الأهواء الصاخبة ، والأنات المتصاعدة يرسلها الشاعر وراء محبوبته ، الحقيقة . . ولكن أين يجدها ؟

(بيروت) خليل هنداوي